فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٢٦ – تطور الحركة الفلسفية فى المانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

لكل فلسفة أجل موقوت ، تظهر فيه حجتها على الناس . وكل فيلسوف يضم شتات فلسفته ويحبسها ضمن نظام منطق كأنها عمل عقلى محض ، ألا إن هذا باطل ، فان الحياة الواعية فى كل انسان لها جذور تمتص من الحياة غير الواعية فيه ؛ وإن حبه لمعرفة الحقيقة يعود إلى غريزة فيه قوية خفية . عد إلى المذهب الفلسفى المدى المجرد من كل شخصية ومن كل هوى تجد شيئاً ينزل منزلة الايمان فيه ؛ وما نظريات الفيلسوف فى الحقيقة إلا بنات مذكراته واعترافاته . إن هذا الفيلسوف ليس فى الحقيقة – كما يخيل الينا – مفكراً خالصاً ، ولكنه محام خبيث يذب عن اعتقاداته الوهمية ولا سيما الأدبية منها . يجرب أن يجعل من اعتقاداته حقائق ثابتة ودساتير نافذة . على أن هذه الاعتقادات التى تنطوى عليها المذاهب الفلسفية التى تريد أن توجه الحياة فى سبيلها ، إنما هى اعتقادات مستمدة من المثل الذى يبشر بالزهد والمسكنة . . . وهكذا لم يكن الكاهن والفيلسوف بخصمين – كما يبدو ظاهر الأمر – وإنما هما صاحبان وإن كانا لا يدريان

هذا هو (كانت) أبو الفلسفة الألمانية لا يرى فيه نيتشه إلا كاهناً مسيحياً تطور فى بعض حالاته . وخلاصة فلسفته أنها تضع « شعبتين » من شعبها خارج القوة العقلية ؛ فى الأولى تلهج بعالم حقيقى مباين لهذا العالم المبنى على الظواهر والحوادث ، وفى الثانية تؤمن بالشريعة الأدبية الخلقية أنها مقدرة تقديراً . وإذا جرد المحقق هاتين الشعبتين وجد أنهما وليدتا نظريات الشريعة المسيحية ذاتها . اذ ما هو الايمان بعالم حقيقى غير هذا العالم ؟ أليست هذه الفلسفة تنطوى على الفكرة التى يبشر بها علم اللاهوت ، فالآله هو العلة الأولى للوجود الذى تتلقفه الحواس ، وحياة الانسان الحقيقية هى الحياة فى الله ، وهكذا أخذ النظريون فكرة القول بآله صالح ، بآله المتألمين ، ودققوها وسموا بها وبدلوا لونها حتى أحالوها عنكبوتاً ضخماً ينسج الوجود من خيوطه . فكان منه « المثل الأعلى » والعقل الخالص ، والواحد المطلق ، والشىء القائم بذاته ؛ على أن هذا الشىء القائم بذاته ، وهذا العالم الحقيقى ان هما – اذا تجردا – إلا العدم الخالص

ان آله المسيحيين – كما يراه نيتشه – هو آله كل ما يتألم ، وكل ما يجنح الى الموت ؛ وهو بدلا من أن يبشر كالآلهة الوثنية بما يفيض على الحياة من بهجة ونعيم ، ويبث الارادة القوية التى تقول للحياة : « بلى » ، ولكل ما تحمله « بلى » ؛ تراه يحمل الناظر الى كل منحط خسيس فى فؤاد الانسان ، بكره الحياة الحقيقية ولا يحمل لها إلا مقتاً ؛ ويجعل رجاءه فى حياة وهمية ثانية . إن عالم النظريين عائل فى حقيقته هذا العالم المسيحى . إنه كلمة فارغة من كل حقيقة ؛ إن الآله المسيحى هو علامة « سلب الحياة » ، وإله الفلاسفة هو العدم الخالص

وتلك الارادة التى تمثل هذا الآله إن هى إلا الجنوح الى الفناء . وإن أبرز هؤلاء الفلاسفة الذين يعتقدون بأنهم مارقون من كل دين وكل إيمان هم فى الحقيقة رجال إيمان لا يتزعزع . إن هؤلاء العلماء والفلاسفة اللادينيين أثواباً مختلفة إنما لباسهم لباس واحد يلفهم ويضم بينهم ، هو لباس الزهد

لنحاول مُعْتَقَدهم : أن إرادة إدراك الحقيقة – مهما كان ثمنها – تتهيأ فى طريقين مختلفين : تقول « لا أريد أن أخدع ! » أو تقول « لا أريد أن أخدع نفسى ولا أخدع أحداً » أما القول الأول فهو بعيد عن الحقيقة ، لأن الانسان ليقدر على أن يسمو إلى الحقيقة بفطنة منه أو خشية إذا كان يثق فى نفع هذه الحقيقة السامى اليها . ولكن الحقيقة هى أنه إذا كانت هنالك حقيقة بدأت تنجلى شيئاً فشيئاً للعقول المستنيرة فهى أن الوهم ذو فائدة للوجود وضرورى له كالحقيقة . وفى اعتقاد نيتشه أن الوهم والكذب هما من الجواهر اللازمة للحياة

إن مسألتنا التى نبتغى حلها ليست بجملة اعتراضات ، ولا فوز فى المنطق ، وإنما مسألتنا هذه : « ما هو الأجدى نفعاً لحفظ الحياة وصيانة النوع ووقاية الحيوان ؟ » وإنا لنستطيع أن نقول بدون تردد : إن الأفكار والأحكام الأكثر بعداً عن الحقيقة هى عندنا من الأشياء التى لا مُنصرَف عنها : ولو أن البشرية استغنت عنها لما استطاعت الحياة ، إذا كان الجحود جحوداً بالحياة نفسها وإعداماً لها

ولكن لو فرضنا أن الكذب أكثر نفعاً والحقيقة أكثر شؤماً ، فان رجل العلم لا يجنح - إذ ذاك - الى الحقيقة طمعاً فى فائدة أو رهبة من شىء ، وإنما يجنح اليها ويتواقع عليها لأنه نشأ على ألا يخدع نفسه ولا غيره مهما كلفه ذلك . تراه يضحى بسعادته وبالبشرية فى سبيل الحقيقة ، هذه الحقيقة المقدسة التى راح يسميها المسيحى إلهاً

ومما لا ريب فيه أن ناشد الحقيقة يضع إيمانه فى وجود غير هذا الوجود ، وحياة غير هذه الحياة . فماذا تراه يضع فى وجودنا هذا بعد انصرافه عنه ؟ هل يجد غير الجحود به ؟ ولكن رويداً ! أريد أن أقول : إن اعتقادنا العلمى مبنى على اعتقادنا النظرى . وأننا نحن مفكرى اليوم ، الجاحدين الناكرين نستمد النار التى تحرضنا وتثيرنا من الجمرة التى أضرمتها نار العقائد كثيراً ، ومن ذلك الإيمان المسيحى الذى شابه الإيمان الأفلاطونى القائل بأن الله هو الحقيقة وأن الحقيقة هى إلهيته

إن رسول الجيل الحاضر لم يجرؤ على أن يشك فى القيم الحالية الموروثة ، لم يجرؤ على القول : ما هى قيمة الحقيقة وما هى قيمة ذلك الأمر المطلق للفضيلة التى تأمرنا بسلوك طريق الحقيقة ؟ إنه وقف مكتوف اليدين إزاء مسألة الحقيقة والفضيلة . إنه لم يقل لماذا وجب على الانسان أن يعرف كنه هذه الطبيعة التى نحسها اليوم كقوة عمياء ، غير عاقلة لا تعبأ بالخير ولا بالشر ، فيها قوة الخصب والتوليد ؛ تنجب دائماً مخلوقات جديدة لتضحى بها لغايات لا معنى لها ، ولا عاطفة فى صدرها ... وإذا كانت هذه حالها فلماذا كتب الانسان على نفسه التضحية بها فى سبيل مثل هذه الألوهية ؟

يرى نيتشه أن الرغبة فى الحقيقة مثلها مثل الصبغة المصرية لصرامة التنسك والزهد التى دفعت الانسان إلى أن يضحى - فى سبيل إلهه - بكل ما تملك يداه ، فكان الانسان يقرب له الضحايا البشرية ، يضحى بأول غلام يأتيه ، حتى إذا جاء العهد المسيحى أصبح الزاهد يضحى للإله بكل غرائزه وميوله الطبيعية

والآن ماذا يملك عليه ليضحى به ؟ ألم ينته دور التضحية له بكل عزيز ؟ أليس الأجدر الآن تضحية الإله نفسه ؟ وعبادة الحجر والمُبهم والثِّقل والحظ والعدم إمعاناً فى مجافاته ؟ وهكذا نجد رسول المعرفة الذى لم يهو فى مهواة الشك ، المؤمن بالحقيقة ، الجرىء على خلق مثل أعلى ، الشديد إيمانه بالعقل السامى والفضيلة ، نجده - إذا نزعت رداءه - زاهداً ينكر الوجود ، ومتشائماً يفر من الحياة ، لأنه يأبى أن يستسلم إلى الوهم ، إلى الكذب اللازم للحياة ، انه عدمى كالمسيحى يعمل على أن يقذف بالانسانية فى هاوية العدم

(يتبع) خليل هنداوى

كتاب

وحى القلم

أصبحت قيمة الاشتراك فى هذا الكتاب ثلاثين قرشاً غير أجرة البريد وهى لداخل القطر ثلاثة قروش

ومن أول فبراير لا يقبل الاشتراك البتة ،

والثمن بعد الطبع أربعون قرشاً

والاشتراك بالقيمة الجديدة يرسل باسمنا إلى طنطا

والمقيمون فى القاهرة يشتركون من إدارة الرسالة

مصطفى صادق الرافعى